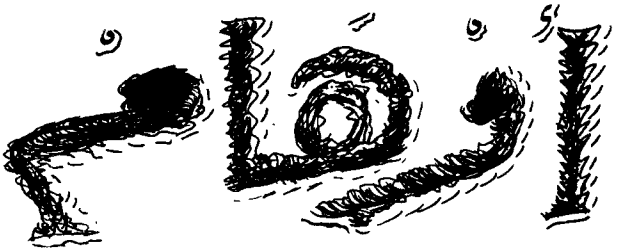

قصة بقلم
محمد زفزاف

القت بنفسها من النافذة ، التي لم تكن بعيدة عن الارض . وفي الخارج سمعها تركض وهي تنتحب . مدّ عنقه من النافذة ، نظر اليها في غضب . اختفت في الظلام البارد . بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في بيتهم . ستحكي لوالدتها كل شيء . أغلق الرتاج . دار في الغرفة وهو يفكر بعصبية . صرخ الطفل الصغير ، فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكته . نظر اليهما . انهما يشبهان دميتين كهربائيتين . ورآها تنتف شعرها وتصرخ : « ويلي ، ويلي » ! وتتجه الى النافذة لتلقي بنفسها منها الى الخارج .

قال للحاج :

ـ هات كأس شاي .

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسر على الفور . فتح الجريدة على الصفحة الثقافية وأخذ يقرأ قصيدة لاحد أصدقائه . كل الاصدقاء أصبحوا شعراء الا هو . قال ان طموحه أكبر من ذلك . انه لا يتسرع في اختبار موهبته ، قد يختبرها بعد عشر سنوات ، ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين يكتبون . قال الحاج :

ـ سي عبد الكريم ، من أين تحصل على كل هذه الصحف والكتب ؟

ضحك الحاج وأضاف :

ـ لو فتحت مكتبة هنا لكنت اغتنيت من سنوات .

ـ لمن ستبيع كتبك ؟

ـ لك وحدك .

أخذ عبد الكريم يرشف الشاي الساخن . يتتبع أبيات القصيدة . يعيد قراءة الابيات والمقاطع « مثلك لم أرَ واحدة أبدا . أنت أجمل من كومونة باريس . آه ، عفوا . أنت أسخف من ثورة بو حمارة .. » . في الساحة المتربة بعض البعر والروث . دجاجات هزيلة تنقب هناك بمناقيرها . مرّت مارتين وهي تحمل قفة في يدها . حيته وهي تبتسم . رد بتراخ . قالت :

ـ أليس عندك درس الآن ؟

ـ لا أشتغل في هذه الظهيرة .

ـ مرّ عندنا هذا المساء . لقد جلب أندري زجاجات جيدة من الخمر . سأهيىء بايلا . هل تحبها ؟

ـ سأحاول أن أمرّ . اني أحب البايلا كثيرا .

انصرفت مارتين . وقال الحاج :

ـ ان وجود هذه الثانوية أنعم علينا بمثل هؤلاء الناس . لم نكن نرى النصارى الا وهم عابرون من هنا . لو عرّبنا التعليم ما رأينا مثل هؤلاء الجميلات .

ـ اذهب الى الدار البيضاء وستشبع من رؤيتهن .

ـ آه ، الدار البيضاء . انها حلم يا سي عبدالكريم . يقال ان فيها عصابات كثيرة . وحتى الفتيات هناك يغتصبن الرجال . ماذا قالت لك تلك النصرانية ؟

ـ ليس ذلك شغلك .

ـ معك حق يا سي عبد الكريم .

أخذ يتلهى بالنظر الى الدجاجات التي تنبش الروث والبعر بمناقيرها وهي تتقافز . لم يكن يحيط المكان سوى بعض الحوانيت ، وخلفها دور شعبية مكتظة بالكثير من الاطفال الصغار ، وخلف الدور المكتظة تفرقت نوايل لخماسين ومستخدمين في البساتين . ومن غير شك فان تلك النوايل هي الاخرى اكتظت حتى انها لم تعد تتسع لاصحابها فلفظت بعضهم الى الخلاء .

أمسك عبد الكريم الجريدة من جديد وأخذ يقلب صفحاتها دون اهتمام . رفع رأسه فرأى قرويا يسوط حماره بعصاه . لكن الحمار لا يأبه للضرب . لقد رفض أن يتحرك ، أن يتقدم . يحلو لعبد الكريم أن يجلس في هذا الوقت ، عندما لا يكون عنده درس في الثانوية . يثرثر مع الحاج أو يقرأ . ان ذلك على كل حال أفضل من النوم . هناك بعض الاصدقاء لا يفعلون سوى ذلك . ماذا يستطيع أن يفعل المرء في قرية صغيرة ، تبعد عن أقرب مدينة بمائة وعشرين كيلومترا ؟ لقد اختار أحد رفاقه في العمل الاغراق في الشرب . بعضهم اختاروا مطاردة تلميذاتهم . أما هو فكان يقرأ وينام مع مارتين كلما أتيحت الفرصة أو تغيب أندري . ومع ذلك ، فقد كان أندري يحبه ، وكانا يتناقشان باستمرار ، عندما

يشربان ، عن حـــوادث ماي ١٩٦٨ . وكيف ان أندري استطاع أن يحطم كثيرا من علامات المرور ، وان مارتين تمكنت هي الاخرى من احراق متجر كبير للعطور .

(ــ يا للايام الجميلة ! هل تذكرين يا مارتين عندما فجّرنا ذلك الغضب ؟

ــ كانت أياما سعيدة حقا .

وقال عبد الكريم :

ــ ما أروع أن يفجّر الانسان موروثه من الغضب ! هل تعرف يا أندري ، ان الغضب ليس حالة نفسيـــة . ولكنه موروث تاريخي . انه خلاصة ماض بأكمله .

ــ صحيح . لقد استطعنا أن نفجّر جزءا مـــن ذلك الموروث) .

ورأى عبد الكريم الرجل القروي وهو يشدّ حزامه. ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الارض . وعندما حاول ان يهوي على الحمار ، رفع هذا الاخير أذنيه وجرى الى الامام ، فركض صاحبه وراءه . وتخلى عبد الكريم عـن مشاهدة ذلك . أدخل اصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصها . كانت لذيذة جدا . وهو يحب أن يفعل ذلك أحيانا . تلك عادة تذكّره بسنوات الطفـولة ، عندما كانت والدته تأمره ان يفرغ البراد من النعنـــع وينظفه . كان يختلي بالبراد ويمصمص كـل محتواه . كم كان ذلك النعنع لذيذا وحلوا !

ولقد احتفظ بهذه العادة حتى بعد زواجه . يحب أن يمارسها أحيانا . وكانت الزوجة تقول : « انك لست طفلا صغيرا. اشتر لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعسل أو بالمربى » . لم يكن يهتم لذلك ، بل يستمر في مصمصة أوراق النعنع وتفلها على الصينية . ربما كان عنـــده شعور بمضايقتها . لانها تحاول ما أمكن ان تمنعه مـــن مسراته الصغيرة . تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الانسان . وكان يعتقد ان تلك الاشياء التافهة في نظر الناس ، هي من الاهمية بمكان بالنسبة للشخص الذي تصدر عنه . لقد تعود أن يحترم أبسط وأحقر سـلوك انساني . ولعل ذلك هـو الخيط الدقيق الـــذي فصل بينهما . لانها لم تكن تتفق معه في وجهـة نظره تلك . والحّت عليه صورتها . قفزت من النافذة ثم اختفت من امام عينيه ، واختفت أيضا من مخيلته . وظهر الطفـلان يتقافزان ويناديان عليه بصوت واحد . وراح يقول لنفسه انه قاس جدا بقدر ما هو عاطفي . وحاول أن يحطم هذا الاخذ والرد في راسه . ليكن الانسان شجاعـا ولو مرة واحدة في حياته ، باتخاذ قرار معين مهما بلغت تفاهته. ودفع الكأس فوق الطاولة . وقف واتجه نحو الحاج . دفع له ثمن الشاي. قال هذا الاخير وهو مشغول بتحريك زر المذياع :

ــ صافي سي عبدالكريم ! ستذهب عند النصرانية؟

ــ هل يهمك ذلك ؟

ــ نعم .

ــ عندما أكون معها في الفراش سأنادي عليك .

وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه :

ــ الله الله ! كم أنت كبير القلب ! ان ظني لم يخطىء فيك أبدا .

ــ سأتركك معها وسأنادي على الجيران . وسيرون كيف ان رجلا قذرا مثلك استطاع أن يغوي امرأة فـي غاية الجمال .

ــ سينصبون لي تمثالا اذ ذاك ، وسيحترمني القايد أكثر . سيعمل كل ما في مستطاعه لانجاحي في الانتخابات القادمة . وسأصبح اقطاعيا كبيرا .

ــ هل ستنساني ؟

ــ كيف أنسى قوّادي ؟!

ضحكا معا . والتقت كفاهما في الهواء . شدا على كفي بعضهما بقوة . ونزلت دمعة فرح من عين الحاج . غادر عبد الكريم القهوة . أحس انه يعيش في فضـــاء هائل متخيل . ليست هناك بيوت ولا أشجار ولا طرق ولا فلاحون ولا نكنات عسكرية . هناك فضاء واسع فقط. الا انه تضايق منه . لقد كان مخيفا . فهو لا يستطيع أن يعيش في فضاء مثل ذاك ، لانه يبعث على التوتر والالم. كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سنّ معينة . الا انه الآن ، لم تعد له قدرة على التحمل . أبسط الاشيـــاء تثيره . حتى ولو كان هذا الشيء منعه من مصمصـــة أوراق النعنع .

(ــ هل من السهولة التخلي عن هذين الصبيين ؟ انهما بريئان .

ــ أعرف ذلك .

ــ من أجلهما أرجو ان نستمر .

ــ لو فعلت شيئا بسيطا من أجل ذلك !

ــ لقد فعلت الكثير .

ــ أنت لم تفعلي شيئا . يجب أن نفترق .

ــ لماذا لا تتحمل ولو قليلا من المتاعب مثلما يتحمل باقي الناس ؟

ــ لم تعد لي القدرة . في السابق ، في سن معينة، كان بامكاني ذلك) .

كانت القرية خالية الآن . الشمس فقط وكلب دلى لسانه الاحمر وهو يلهث . مشى عبد الكريم تجاه بـاب مصبوغ بطلاء أخضر باهت . طرق الباب ، والتفت ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيب أحد أساتذتهم ، يلعبون بالكرة . طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قذرة ، نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب .

ــ قولي لابيك زجاجة واحدة كيفما كان نوعها .

ــ لا يمكن . لقد مرّ رجال الدرك امس واحتجزوا

كل الزجاجات بأمر من القايد . لحسن حظنا انهم لـــم يأخذوه الى السجن .

ــ قولي له سي عبد الكريم يريد ذلك . انا متأكـد انهم لم يفتشوا البئر وانت تعرفين ذلك . لا تكذبي .

ــ لقد فتشوا كل شيء حتى البئر .

ــ لا تكذبي . انهم لا يعرفون ان في بيتكم بئرا .

اغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبد الكريم . وعندما تأخرت عاود الخبط على الباب بدون جدوى لانها لم تفتح . انسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع . تذكـر بعض زملائه الذين يشربون أو يطاردون تلميذاتهم . في هذه القرية الصغيرة ليس هناك من اهتمام سوى السكر والزنى . انحنى عبد الكريم والتقط عدة أحجار . أخذ يطوح بها بعيدا . ثم تذكر ان هذا عمل لا يليق بأستاذ . لو رآه اي شخص لاعتقد انه فقد عقله . أرخى ذراعـه فهوت قطعة الحجر الاخيرة بهدوء الى الارض . اذا كانت البئر قد جفت أو فتشها الدركيون فان هنـــاك أندري ومارتين . ابتسم لنفسه. في أحرج الاوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجا .

(ــ ان ما يعجبني فيك هو صمودك وعنادك .

ــ لست كما تدعين . ولكني فقط أعرف ما أعمل .

ــ ولهذا السبب فاني لا أريد أن نفترق . نعمل من اجل اسعاد طفلينا .

ــ كان عليك أن تعملي لذلك في السابق . أما الآن فليس وقته) .

وقالت مارتين في المساء :

ــ ان ما يعجبني فيك هو عنادك .

ــ لقد جفت البئر أو ربما فتشها الدركيون .

ــ ماذا تقول ؟ اني لا أعرف عمّ تتحدث .

ــ ليس مهما . يبدو انك في حاجة الى ذلك . هل تتذكر زوجتك وطفليك ؟

ــ مثلما تتذكرين أندري الآن .

ــ ليس هناك أي وجه للمقارنة . بالنسبة لي فان اندري يعرف كل شيء .

تمدد عبد الكريم على ظهره . اقتربت مارتين وأخذت تمرّ بأصابعها على شعره . استلذ ذلك أول الامر ، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد عنها . وقفت وذهبت الى المطبـــخ . أحضرت شريحتي لحم . واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الاخرى . كان عبد الكريم يشعر انـه ليس وحيـــدا في هذا العالم . لا بد وأن نعثر على من يساندنا حتى ولو في زنزانة . منذ انتقاله التأديبي الـى هذه القرية . استطاع أن يتعرف على الكثير من الناس . يعتقد انهم يحبونه كثيرا . وحتى لو كان ذلك وهما فانه يرضيه . اذ كيف نستطيع أن نميز بين الوهم والحقيقة. واراد أن يقول ذلك لمارتين ولكنه تراجع . وسمع جرس الباب يرن . ليس أندري على كل حال . لكن ...

(ــ دع عنك الاوهام . نستطيع أن نتلافى كل ما فات ونعيش من جديد من أجل طفلينا .

ــ اني لا أتشبث بالاوهام أبـدا . لكني أحيـــانا لا أفرق بينها وبين الحقيقة .

ــ تلك هي مشكلتك .

ــ أعتقد انها ليست مشكلتي وحدي . انها مشكلة أي انسان . ستعرفين أنت كذلك هذا اذا ما تمعنت في الامر جيدا) .

سمع عبد الكريم أصواتا مرتفعة في الخارج . ميز منها صوت مارتين بصعوبة . أخذت الاصوات تقترب ، واصبح أكثرها حدة هو صوت مارتين . ثم أطلت عليه قامة رئيس الدركيين . كانت مارتين خلفه تقول :

ــ ان هذا غير معقول .

قال الرئيس لعبد الكريم :

ــ تفضل . خذ معك الزجاجة . انت متهم بالسكر والخيانة الزوجية .

وكانت مارتين تصرخ : ــ غير معقول ، عبد الكريم . ان هذا الدركي يريدني لنفسه . لقد حاول معي مرارا . لم أر مثل هذا أبدا . غير معقول . يا له من بلد غريب !

الدار البيضاء

صدرت حديثا في طبعات جديدة

مؤلفات القاص العراقي

عبد الرحمن مجيد الربيعي

الانهار (رواية)

القمر والاسوار (رواية)

منشورات دار العودة ــ بيروت

●

الوشم (رواية)

الظل في الراس (قصص)

وجوه من رحلة التعب (قصص)

منشورات دار الطليعة ــ بيروت